النزعة العقلية في فهم النص الديني في عصر النبي :
التأويل عند التابعين:

د/ بلعز كريمة

أ / محاضرة بـ جامعة الدكتور مولاي طاهر – سعيدة – الجزائر .

تفاوت الصحابة في إدراكهم لمعاني النصوص الدينية حسب درجات الفهم ، واختلاف أحوالهم وقربهم من الرسول (ص)، وأن فهم الصحابة القرءان في جملته – ظاهره وأحكامه- فإن فهمه تفصيلا، ومعرفة دقائق باطنه أمر لم يتيسر لعامتهم فأشكل على بعضهم ما ظهر للبعض الآخر ، ولو كان القرءان كله ظاهر مكشوفا حتى يستوي العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس . [1]

ومن هنا كان للصحابة وقفات أمام بعض النصوص الدينية التي دقت معانيها والألفاظ التي تختفي ورائها شيئا يرغبون في معرفته، وذلك لأن القرءان فيه المجمل، والمشكل، والمتشابه، غير أن حيرة الصحابة لم تطل، إذ كانوا يرجعون في مثل هذه الإشكاليات إلى الرسول (ص) فيفسر لهم ما تدعوه الحاجة إلى تفسيره، ويبين لهم ما خفي عن إدراكهم مصادقا لقوله تعالى " **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** " النحل الآية 64 .

وكثيرا ما كانت الحاجة تعوز الصحابة إلى تأويل من جانب الرسول (ص) إذا أشكل عليهم الأمر ، ومن القرءان ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان من الرسول (ص)، فمن المعروف أن السنة النبوية تفصل مجمل القرءان [2]

وبعد وفاة الرسول (ص) توقف الوحي وانقطعت السنة ، فبدت الحاجة ملحة لإيجاد مصدر ثالث بعدهما للإشكاليات المتعلقة بالخطاب الديني وفهم النص ومعرفة مقصد الشارع ، والارتضاء بالتأويل مع عدم الخضوع لتأويل القرءان بالهوى من غير دليل ومن ثم فإن التأويل الذي يبعد النص عن مفهومه الصحيح لم يكن قد عرف في عهد الرسول (ص) أو الصحابة أو التابعين

ومادام للنص مفاتيح دلالية تكشف غوامض هذا النص

نفسه، وهي بمثابة آلية هامة لتحويل فعل القراء إلى فعل

إيجابي يساهم في إبراز لدلالة النص[3]

ظهرت في مكة وبعد وفاة الرسول (ص) نزعة عقلية في فهم نصوص القرءان الكريم بين كبار مفسريها ومن بين هؤلاء مجاهد بن حبر (ت 104 هـ) ، وكان مجاهد رضي الله عنه يعطي عقله حرية واسعة في ظاهرها بعيدا ، فإذا مر بنص قرءاني من هذا القبيل وجدناه ينزله بكل وضوح على التشبيه والتمثيل[4]

وهذا مبدأ من المبادئ التي قررها المعتزلة فيما بعد على آيات كثيرة .... إن التأويل عند المفسرين من التابعين سواء في مكة أو المدينة أو مدرسة العراق تلقوا غالب أقوالهم في التفسير عن الصحابة وما وراء ذلك كان اجتهادا لهم، وكانوا على درجة عالية من العلم ودقة الفهم وما دام الرمز في الفكر الفلسفي الإسلامي قد تأسس داخل اللغة ذاتها ثم تكاتف مع الحمولة المجازية للنص الديني الأساس "القرآن"، فإن النص القرآني نص حيا لأن الفهم فيه متعلق به لم يكتمل، بل أنه يعيد نقد الأفهام السابقة عليه، وهو ما يجعله في كل مرة لنص أو لنصوص هامشية تتحول، مع شروط الوعي المرتبطة بالتاريخ ، إلى نصوص مركزية والانشغال على رمزية النص بالتأويل لا يتأتى إلا عندما نشتق اللغة نفسها، أي حينما تعطى كقوة محيثة لفعل الفهم نفسه[5]

التأويل والنص الديني :

والنص المؤسس لتاريخ الفهم العربي الإسلامي القرآن ، ينطلق من التمييز ببنيته على الشعر الجاهلي ، أي أن إنتاج الرموز فيه يختلف عن إنتاجها في الشعرية الجاهلية ليس على مستوى اللغة وإنما على مستوى الدلالية وعلمها الذي يفتقر إلى الأشياء ومراجعتها لأنه – القرآن – يشغل منذ البداية على جمل اللغة لتقرير الوجود، بل أن الخلق يتأسس على اللغة ... ولأنه لا يمكننا الفهم إلا في اللغة وبها، فإن اقتراب الغيب من الفهم الإنساني لم يكن ممكنا إلا بتوسط الرموز اللغوية وتحريك المجاز داخلها لتوسيع دائرة الإمكان

الوجودي، ومنه يتمكن الفهم من نشر قواعده والاحتفاظ بشموليته بربط وظائف متعددة واحتياطيات المعنى باللحظة التأسيسية الواحدة (6)

وبعد انتهاء الأنبياء والطريق المباشر في الإبلاغ (الوحي) أصبح الفكر العربي الإسلامي في مواجهة اللغة التي بدت هذه الأخرى أنها اكتملت نحوا وبلاغة ، ومنه فإن أي تأويل وأي تحديد للمعنى داخل الثقافة العربية الإسلامية لا يتم إلا بإعادة خلخلة اللغة واستعادة زمن انشائيتها، أي محاولة إخراجها ونشرها وبعثها، وإن كانت اللغة وهي ما ابتدئ به الخلق فإن التأويل هو ما يبتدئ به البعث والميعاد .

ومهما يكن الأمر فإن نواة الاختلاف في الأحكام، بدأت بدورها في زمن التابعين، وأن أول جدل دار ثار، كان حول ألفاظ النصوص الدينية التي تحمل ما يدل على الخير، وما يدل على الاختبار، وكيف أن الرأي وضده وارد في القرآن الكريم في قوله تعالى **"وقل الحق من ربكم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"** الكهف الآية 29. ما يدل على الاختيار. وحول هذه الآيات وما شابهها دار الاختلاف بين المؤمنين، وواقع الأمر أن الاعتماد على تفسير السلف من الصحابة والتابعين لا يخلوا عن أصحاب هذا التصور من موقف اختياري يعتمد على الترجيح بين الآراء، هذا الاختيار القائم على الترجيح يعكس بدوره موقفا تأويليا تابعا من موقف المفسر وهموم عصره وإطاره الفكري والثقافي وكلها أمور لا يمكن لأي مفسر أن يتجنبها مهما ادعى الموضوعية والانعزال عن الواقع والحياة مرة أخرى في الماضي. هذا إلى جانب استبدال لفظة بلفظة للشرح والتوضيح، أو التعبير عن المعنى بعبارات أخرى يتضمن بالضرورة فهما خاصا يرتبط بدلالة اللغة من عصر إلى عصر كما يرتبط بالإطار المعرفي الذي تعكسه اللغة في تطورها التاريخي فإذا أضفنا إلى ذلك أن الألفاظ التي يظن أنها مترادفة تعكس فروقا دقيقة في دلالتها، أدركنا أ أي شرح لا بد أن يتضمن نوعا من التأويل.(7)

التأويل واللغة :

اللغة في المنظومة الأصولية، إحدى أهم الأدوات في استنباط الأحكام وتحديد الدلالات، ولعل الذي يعطي اللغة هذه الميزة هو أنها اتخذت وسيلة لا غاية ،إذ توظف إمكاناتها التعبيرية وقواعدها الأصولية لفهم غايات النص وروح الدلالات فيه، على نقيض علوم العربية التي تعاملت مع اللغة كغاية في حد ذاتها.... ولذلك تبرز اللغة في الحقل الأصولي ذات نظام مختلف، وما اختلاف المذاهب الفقهية في استنباط الأحكام من مضانها الشرعية، إلا مظهر من مظاهر استثمار حقول اللغة المختلفة من قبل من قبل علماء التدليل على صحة الترجيح كما في النص القرآني المتناول لموضوع "الوضوء والطهارة"، في قوله تعالى **"يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين"** سورة المائدة آية 07 .

فاختلف العلماء في إعراب لفظ "أرجلكم" هل هو بالكسر، فيلحق بمن عطف عليه وهو لفظ "رؤوسكم" فيأخذ حكمه ودلالاته أو بعطف على لفظ سابق حكمه النصب وهو لفظ "وجوهكم" فيأخذ حكمه الإعرابي وبالتالي الدلالي فاستنبط الدلالية – ها هنا – يرتد إلى الآلية العلائقية التي تربط عناصر الخطاب شكليا (أي نحويا وإعرابيا)، ووصفيا (أي دلاليا ومعنويا)، ولا يمكن بحال أن نتصور الحكم دون تحديد العلاقة(8)

التأويل عند الصوفية :

لم يكن من السهل أن يجد الصوفية في القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمهم، فنظروا في آيات القرآن نظرة تتماشى مع اتجاهاتهم، وحاولوا أن يجدوا في القرآن ما يشهد لهم، فتعسفوا في فهمهم للنص الديني وتفسيره فنظروا إلى باطن الشريعة دون ظاهرها وقالوا أن الحقيقة هي المعنى الباطن المستتر وراء ظاهر النص، ومن هنا قال الصوفية بالتفسير الغيضي أو الاستشاري، وهو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، وهي ما يعرف عند الصوفية بعلم الخواطر، وعلوم المشاهدات والمكاشفات، وهي التي تختص بعلم الإشارة، وهو الذي تغردت به الصوفية.(9)

ومن الواضح أن المعرفة عند الصوفية ليست نتيجة بحث عقلي، بل هي متوقفة على رضوان الله ومشيئته يسبغها منحة من عنده على هؤلاء الصوفية الذين نادوا بوجود حقائق باطنية خفية، ليس للعقل أن يضعها موضع بحث ومناقشة، ويقرون أنهم وحدهم الذين بإمكانهم الوصول إلى هذه الحقائق الباطنة بتأويلاتهم الإشارية الخاصة ويؤكد الكلابادي (ت 380 هـ) ذلك لقوله **"وإنما قيل: علم**

الإشارة، لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم المنازلات والمواحيد ، ولا يعرفها الأمن بإنزال تلك الأحوال وحل تلك المقامات"[10]

ومما يجب ملاحظته أن موقف الصوفية من باطن الشريعة وظاهرها ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

1- الصوفية يقولون بالباطن مع الالتزام لظاهر الشرع ويقول أبو سعيد الحراز (ت 277 هـ) كل باطن يخالف ظاهر فهو باطل.

2- صوفية يقولون بالباطن يسقط ظاهر الشرع المتمثل في العبارات والمعاملات واعتبروا النية أفضل من العمل متأولين في ذلك حديث الرسول (ص) الذي رواه البخاري ومسلم "**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**". حيث خلاص العبد عند الصوفية في إخلاص النية لا في القيام بالعمل وهم يفضلون التأمل على العبادة لأن التأمل عمل روحي خالص وهو الغاية عندهم ، وبه تحصل الفوائد الروحية من العبادة .

3- الصوفية يقولون بالظاهر ويقومون بأعماله ولكن ظاهر الشريعة عندهم يرمز إلى معان باطنية ، وهم – الرمزيون من الصوفية – ولذلك أولو شعائر الدين الظاهرية تأويلا باطنيا .

الحق أن هناك تأويلات غاية في الغرابة في التفسير الصوفي الاستشاري يقف العقل أمامها حائرا وعاجزا عن تلمس وجها لها تحمل عليه، مما بعد إشكالية كبرى في تاريخ تفسير النص الديني.[11]

إن ما يمز الفكر الصوفي في تاريخ القراءة العربية الإسلامية كونه دائم البداية باستشارته لمراجع جديدة تماما من حيث مراجع الحيادية لا تسمح بنفوذ اللغة ولا بتحريض الفعل التاريخي ولئن كان النص سابقا على الفهم في المواضعة الزمنية، فإن الوعي بالإمكان يفتح اللغة على عالم تضطرب فيه المراجع الأساسية لدلالات الكلمات ولا تتمكن العلامات من البرهنة على شكل وجودها وهو ما يسمح للذن بإنشاء شروح داخل صورة العالم الموجه بقصود المعاني الضروري للنص، وعبرها يتم إنشاء العالم الجديد ولتآلفي عالم إحالي وفي الإحالة تندرج حقيقة لحالة الإمكان . [12]

احتكر الصوفيون التأويل واحتقروا العقل وضيقوا دائرة الإسلام حين جعلوا التأويل حقا يحتكرونه وينكرونه على الآخرين وأبطلوا قيمة العقل في التآويل كما أنكره الباطنية، وقد أولوا الآيات تأويلات خاصة تتنافى مع الظاهر وتتعسف في طلب ولا يقوم عليها دليل المعاني، وأبطلوا قيمة العقل في التأويل كما أنكره الباطنية .

وقد أولوا الآيات تأويلات خاصة تنافي الظاهر، وتتعسف في طلب الباطن ولا يقوم عليها دليل برهاني .

خاتمة :

مهما يكن من أمر، فقد لعب التأويل دورا مهما، بل وخطيرا في مختلف البيئات الفكرية الإسلامية وأصبح أداة فعالة عند كل المشتغلين بالنص الديني، فأصحاب الفرق يعولون عليه في نصرة مذاهبهم والمتكلمون يستخدمونه في محاوراتهم الجدلية، والصوفية وأهل الباطن يعتمدون عليه وصولا إلى حقائقهم الباطنية التي قالوا بها، والفلاسفة يلجؤون إلى التأويل لصرف ظاهر الشرع إلى ما يوافق العقل إذا تعارض معه وبخضوع التأويل إلى كل هذه الاتجاهات أصبح يمثل إشكالية غاية في الأهمية والخطورة لأنها تتصل ببحث الجوانب الدقيقة في القضايا الإلهية والشائكة في النصوص الدينية ، وعليه فإن إشكالية التأويل قضية محورية ينطوي تحتها الفكر الفلسفي والديني عند المسلمين، ومن هنا كانت منار اهتمام مفكري

قائمة المراجع:

1- أحمد عبد المهيمين – اشكالية التأويل بين كل من الغزالي وابن رشد دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ط1 – 2001.

2- منقور عبد الجليل – النص والتأويل – ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر د ط – 2010

3- محمد حسين الذهبي – التفسير والمفسرون – مكتبة وهبة – القاهرة – ج 1 – 1993

4- د/ عمارة ناصر – اللغة والتأويل – منشورات الاختلاف – ط1 – 2007

5- حامد أبو زيد – فلسفة التأويل المركز الثقافي العربي – ط5 -2003

6- الكلابادي – التعرف لمذهب أهل التصوف – تحقيق النواوي - القاهرة-1980
7- أبو العلاء العفيفي – التصوف الثورة الروحية في الإسلام – دار المعارف – مصر – ط1دت.

الهوامش:

1- أحمد عبد المهيمين – اشكالية التأويل بين كل من الغزالي وابن رشد دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ط1 – 2001 – ص 90
2- أحمد عبد المهيمين – نفس المرجع السابق ص 91
3- منقور عبد الجليل – النص والتأويل – ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر د ط – 2010 ص 47
4- محمد حسين الذهبي – التفسير والمفسرون – مكتبة وهبة – القاهرة – ج 1 – 1993 ص 108
5- د/ عمارة ناصر – اللغة والتأويل – منشورات الاختلاف – ط1 – 2007- ص 65
6- عمارة ناصر – المرجع السابق-ص 59
7- نص حامد أبو زيد – فلسفة التأويل المركز الثقافي العربي – ط5 -2003 – ص 12
8- منقور عبد الجليل – النص والتأويل – المرجع السابق – ص 21
9- الكلابادي – التعرف لمذهب أهل التصوف – تحقيق النواوي - القاهرة – ص2- 1980 ص 105
10- المرجع نفسه ص 105
11- أبو العلاء العفيفي – التصوف الثورة الروحية في الإسلام – دار المعارف – مصر – ط1 – ص 115 .

12- أحمد عبد المهيمن – المرجع السابق – ص 110

13- عمارة ناصر – المرجع السابق – ص 117